
الطَّرب
إلى لَحْن العرب
كتبه: بأس الفرد

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله الذي لا إله غيره، والصلاة على نبيّ فشا فضله وخيره.

فالقصدُ من هذه المقالة ذكرُ بعض من قواعد العرب في الإنشاد، جمعتها بعد أنْ رأيت من أهل هذا الزمان تتابعا على منكر الألحان، حتى إنك لتتبع إنشادهم فلا تجدُ لمرامك أثرا، ولا لمطلوبك ذكرا، فلنأخذ الآن في غرضنا، ونبدأ من ذلك بأول هذا الأمرِ ومنشئه.

قال ابن خرداذبه الفارسي في مطلع كتابه المختار من كتاب اللهو: «روي أن مضر بن نزار خرج في مال له فوجد غلامه قد تفرقت عنه الإبل فشد عليه فضربه على يده بعصا فعدا الغلام وهو يصيح وا يداه وا يداه. فسمعت الإبل صوته فتعطَّفت عليه، فقال مُضر لو اشتق من الكلام مثل هذا لكان مما تجتمع عليه الإبل. فاشتقّ حينئذ الحدا هادياً هادياً على قوله وايداه وايداه. فكان الحداء أول السماع والترجيع في العرب. ثم اشتق الغناء من الحداء حباب بن عبد الله الكلبي فغنى النصب، وصنعته نساء العرب على موتاهن، ولم أرَ أمة بعد الفرس والروم أولع بالملاهي ولا أطرب من العرب. **وكان غناؤهم النصب ثلاثة أجناس:** الركباني

والسناد الثقيل والهزج الخفيف. فأول من غنى من العرب العاربة الجرادتان وكانتا قينتين على عهد عاد لمعاوية بن بكر العملقي وكانت تسمّى القينة الكرينة والعود المزمر. **قال لبيد:**

أغلى السباء بكل أدكن عاتقٍ * أوجونةٍ قدحت وفض ختامها**

بصبوح صافيةٍ وجذب كرينةٍ * بموتّر تأتالهُ إبهامها**

ثم غنى جُذيمة الخزُاعي بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمر بن عامر وكان من أحسن الناس صوتا فسمي المصطلق وهو الحسن الخلق في كلام العرب غناء النصب.

ثم غنى بعده ربيعة وهو ضبيس الخُزاعي بن حزام بن حيشة بن سلول بن كعب بن عمرو بن عامر.ثم غنى زمام بن خطام الكلبي الذي يقول فيه الصمة القشيري:

دعوت زماما للهوى فأجابني * وأي فتى للهو بعد زمام»**

ويعضد هذا المعنى ما رواه البيهقي في سننه عن الشافعي، قال:

«أدرك رسول الله ﷺ ركبا من بني تميم ومعهم حاد، فأمرهم بأن يحدوا، وقال: «إن حادينا ونى من آخر الليل»، قالوا: يا رسول الله، نحن أول العرب حداء بالإبل قال: «وكيف ذاك؟»، قالوا: كانت العرب يغير بعضها على بعض، فأغار رجل منا، فاستاق إبلا فتبددت، فغضب على غلامه، فضربه بالعصا، فأصاب يده، فقال الغلام: وايداه وايداه، قال: فجعلت الإبل تجتمع قال: فهكذا

فعل قال: والنبي ﷺ يضحك، فقال: «ممن أنتم؟»، قالوا: نحن من مضر، فقال النبي ﷺ: «ونحن من مضر»، فانتسب تلك الليلة حتى بلغ في النسبة إلى مضر».

وقال ابن رشيق القيرواني في العمدة: «وزعم ناس من مضر أن أول من حدا رجل منهم، كان في إبله أيام الربيع، فأمر غلاما له ببعض أمر، فاستبطأه، فضر به بالعصا، فجعل ينشد في الإبل ويقول: يايداه، يايداه، فقال له: إلزم إلزم، واستفتح الناس الحداء من ذلك الوقت».

وذكر ابن قتيبة أنهم قالوا ذلك للنبي ﷺ، وحكى الزبير بن بكار في حديث يرفعه أن النبي ﷺ قال لقوم من بني غفار سمع حاديهم بطريق مكة ليلا فمال إليهم: «إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعاته فوجدها قد تفرقت، فأخذ عصا فضرب بها كف غلامه، فعدا الغلام في الوادي وهو يصيح: وايداه، وايداه، فسمعت الإبل ذلك فعطفت، فقال مضر: لو اشتق مثل هذا لانتفعت به الإبل واجتمعت، فاشتق الحداء».

وممن كان يحدو من المشاهير أعشى بني مازن، وأبو هريرة وأنجشة خادم رسول الله ﷺ والبراء بن مالك الأنصاري وابن الأكوع وغيرهم من سادة الناس وأشرافهم رضي الله عنهم.

ذكر الذهبي بإسناده إلى أبي هريرة أنه قال: «نشأت يتيما، وهاجرت مسكينا، وكنت أجيرا لبسرة بنت غزوان، بطعام بطني وعقبة رجلي، وكنت أخدم إذا نزلوا، وأحدوا إذا ركبوا، فزوجنيها الله، فالحمد لله الذي جعل الدين قواما، وجعل أبا هريرة إماما».

وروى البيهقي عن الشافعي أنه قال: «سمع رسول الله ﷺ الحداء والرجز، وأمر ابن رواحة في سفره فقال: «حرك بالقوم»، فاندفع يرجز.

قال أحمد: ورجزه في رواية قيس بن أبي حازم رحمه الله:

والله لو لا أنت ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا

ورجزه فيما روي عن أنس:

خلوا بني الكفار عن سبيله

قد نزل الرحمن في تنزيله

إن خير القتل في سبيله

نحن قاتلناكم على تأويله

كما قاتلناكم على تنزيله».

وأسند عبد الله بن أحمد بن حنبل في علله إلى الشعبي قوله: «كان معاوية يسمي الأعشى، أعشى بني مازن، صناجة العرب».

وذكر ابن عبد البر الأندلسي في الاستيعاب أن رباح بن المغترف القرشي كان ينشد وكان شريكا لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، قال: «روي أنه كان مع عبد الرحمن بن عوف يوما في سفر فرفع رباح صوته يغني غناء الركبان، فقال له عبد الرحمن: ما هذا؟ قال: غير ما بأس نلهو ونقصر عنا السفر، فقال عبد الرحمن: إن كنتم لا بد فاعلين فعليكم بشعر ضرار بن الخطاب.

ويقال: إنه كان معهم في ذلك السفر عمر بن الخطاب، وكان يغنيهم غناء النصب».

واعلم أن ضروب الغناء عند العرب ثلاثة، قال القيرواني: «وغناء العرب قديما على ثلاثة اوجه: النصب، والسناد، والهزج.

فأما النصب فغناء الركبان والفتيان، **قال إسحاق بن إبراهيم**

الموصلي: وهو الذي يقال له المرائي، وهو الغناء الجنابي، اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد الله بن هبل، فنسب إليه، ومنه كان أصل الحداء كله، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض.

وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع، الكثير النغمات والنبرات، وهو على ست طرائق: الثقيل الأول، وخفيفه، والثقيل الثاني، وخفيفه، والرمل، وخفيفه.

وأما الهزج فالخفيف الذي يرقص عليه، ويمشي بالدف والمزمار فيطرب، ويستخف الحليم، قال إسحاق: هذا كان غناء العرب حتى جاء الله بالإسلام، وفتحت العراق، وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم، فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية، وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير».

ومما جاء في وصف النصب قول أبي عبيد القاسم بن سلام في الغريبين: «النصب ضرب من أغاني العرب وقد نصب الراكب، و هو شبه الحداء»، وأوضح منه وأظهر قول ابن قتيبة في غريب الحديث: «هُوَ غناء لَهُم يشبه الحداء غير أَنه أرق مِنْهُ».

هـذه حكايـة قولهـم في هـذا البـاب، واعلـم أن مبـدأ هـذا الأمـر يعلـق بطـرق إنشـادهم الشـعر مـن غـير لحـن، وقـد اختلفـت العـرب فيـه قديـما ضروبـا مـن الاختـلاف، والنـاس اليـوم ينحـون فيـه منحـى غريبـا فيبطئـون في الشـعر إلى حـدّ مسـتهجن ظنـا منهـم أن ذلـك بلاغـة وفصاحـة عنـد القـوم وماهـو بذلـك، ألا تـرى قـول ابـن مسـعود رضي الله عنـه في القـرآن: «لا تنثـروه نثـر الدقـل ولا تهـذوه هـذ الشـعر، قفـوا عنـد عجائبـه، وحركـوا بـه القلـوب، ولا يكـن هـم أحدكـم آخـر السـورة».

والهـذ الإسراع في القطـع وفي القـراءة. يقـال: هـو يهـذ القـرآن هـذا ويهـذ الحديـث هـذا، أي يـسرده، ذكـر ذلـك الجواهـري وغـيره مـن مصنفـي المعاجم.

وربـما كان للغـات العـرب المختلفـة أثـر عـلى إنشـادهم، قـال ابـن عقيـل الطالبـي في المسـاعد عـلى تسـهيل الفوائـد: «وأمـا ربيعـة، فـلا يبدلـون مـن التنويـن في النصـب ألفـا، بـل يحذفونـه، ويقفـون بالسـكون، كالمرفـوع والمجـرور؛ وهـذه اللغـة حكاهـا الأخفـش، ولم يذكـر كثـيرون أصحابها؛ وقـال الخـضراوي: لم يذكـر سـيبويه هـذا؛ وذكـر الأخفـش، أن مـن العـرب مـن يقـف بالسـكون كالمرفـوع، والجماعـة يـرون أن هـذا ممـا جـاء في الشـعر، ولا يجـوز في الـكلام». انتهـى.

وقال ابن رشيق في العمدة: «ليس بين العرب اختلاف إذا أرادوا الترنم ومد الصوت في الغناء والحداء في اتباع القافية المطلقة، مثلها من حروف المد واللين في حال الرفع والنصب والخفض، كانت مما ينون أو مما لا ينون»، إلى قوله: «ومنهم من يجري القافي مجراها ولو لم تكن قوافي فيقف على المرفوع والمكسور موقوفين ويعوض المنصوب ألفا على كل حال، وهم ناس كثير من قيس وأسد، فينشدون:

لا يبعد الله جيرانا لنا ظعنوا * لم أدر بعد غداة البين ما صنع**

يريد « ما صنعوا». وكذلك ينشدون:

ففاضت دموع العين مني صبابة * على النحر حتى بل دمعي محمل**

ثم قال: «ويحكى عن رؤبة أنه أنشد قصيدته القافية المقيدة منونة، فرد ذلك الزجاجي وأنكره، وذكر أنه وهم من السامع، وأن الوجه فيه أن من العرب من يزيد بعد كل قافية «إن» الخفيفة المكسورة إعلاما بانقضاء البيت، فينشد:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق ان * مشتبه الأعلام لماع الخفق ان**

إلى آخر كلامه فانظره هنالك.**وهذا كقولهم:**

يا صاح ما هاج العيون الذرفن * من طلل أمسى يحاكي المصحفن**

وقال أبو حيان الأندلسي في ارتشاف الضرب من لسان العرب: «الوقف على الروي يكون في حال ترنم، وفي غير حال ترنم، ووقف الترنم خاص بإنشاد الشعر، والترنم زيادة في الصوت، وتطويل فيه ويكون في الغناء، والتطريب، ومظنته القوافي، فبعض بني تميم، وغيرهم يقف بتسكين الروي كما يقفون في الكلام نحو:

أقلي اللوم عاذل والعتابْ * وقولي إن أصبت لقد أصابْ**

كأنه ليس في شعر، وأهل الحجاز يثبتون مدة بعد حرف الروي ترنموا أو لم يترنموا».

على أنَّ قوما من المترنمين اليوم يمدون ماليس من حقه أن يمد، ويحسبونه من لحن العرب وماهو بلحنهم كقولهم: «قيفا نابك من ذكرا حبيب ومنزلي»، بدل: قفا نبك من ذكر حبيب ومنزلِ.

وهذا من ألحان النبط والعجم، **قال الجاحظ:** «العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزونا على غير موزون»، وذكر ابن فضل الله العمري القرشي في مسالك الأبصار من كلام إسحاق الموصلي: «لا يجوز في غنائك الذي صنعته إلا أن تقول: (ذهبتو) بالواو، فإن قلت (ذهبت) ولم تمدها تقطع اللحن، وإن مددتها قبح الكلام، وصار مثل كلام النبط».

نجز والحمد لله